

لِفَصْل الْقَوْلِ أَحَدٌ مِنَ الْحَسَامِ، وَاسْتَكْشَفَهُ الْحُكَمَاءُ الرَّاسِخُونَ قِصَّةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنْ مَضَى مُوْنَهَا اسْتَمَرَّ رَأْيُهُ التَّمَدُّنَ عَنِ تَعَاقِبِ الْقُرُونِ الْكَثِيَّةِ فِي أَيَّامِ الْمَالِ لُوكَا الْأَوَائِلِ، وَمِمَّا يُعْضِدُ مَا الرُّسُومُ الْمَلُوكِيَّةُ الْعَدَنِيَّةُ، وَكُلُّ مَنْ ظَهَرَ أَنَّهُ تَعَيَّشَ مِنْ وَجْهِ حَرَامٍ فَجَزَاؤُهَا الْقَتْلُ، فَيُسْأَلُ كُلُّ إِنْسَانٍ عَنْ مَوَادِّ تَعَيُّشِهِ، وَمِنْ وَقَطْعِ رِقَابِ بَطَالَةِ الْغَشِّ وَالتَّدْلِيْسِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَجِبُ فِي آخِرِ بِلْ وَفَاءِ الدِّينِ مَحَلُّهُ أَمْوَالُ الدِّينِ لِأَشْخَصٍ وَلَمْ يَكُنْ خَصْمُهُ، وَكَانَتْ قَوَانِينُهُمْ تَمِيلُ إِلَى الْحَثِّ عَلَى الْعَمَلِ مِنَ الْقَاتِلِ بِدُونِ حَقٍّ وَلَمْ يُخَلِّصْهُ فَجَزَاؤُهَا الْقَتْلُ، وَأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى تَخْلِيصِ الْقَتُولِ وَكَانَ فِي أَحْكَامِهَا إِيَّايَ عِقَابًا لِلزَّانِ شَدِيدًا أَجَدَ الْكُونَهُ مِنَ الْكِبَائِرِ الْإِلَهِيَّةِ لِلْأُمَّةِ، وَأَذِنَ لِلْمُحَقِّ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا؛ فَإِذَا ظَهَرَ الْحَقُّ وَالْقَضَايَا وَالْآرَاءُ تُكْتَبُ بِالْقَلَمِ وَالنَّاقِشَاتُ وَالْحَاوِرَاتُ وَالرَّافِعَاتُ كَذَلِكَ؛ وَكَانَتْ كِتَابَتُهُمْ بِالْقَلَمِ أَنَّهُمْ كَانُوا يُؤَلِّهُونَ كُلَّ مَنْ أَخْلَعَ أَمْرًا غَرِيبًا مِنْ قَانُونٍ أَوْ لَمْ أَوْفَنَ، فَكَانُوا لَا ذَاكَ إِلَّا بِقُوَّةِ عَسَاكِرِهِمْ وَبَطْنِهِمْ وَرَبْطِهِمْ، وَفَتَحَ الْعِرَاقَ وَالْعَجَمَ بِدَلِيلِ أَنْالِ الْمَلِكِ سِيزُوسَيسَ جَيْشَ جَيْشٍ عَظِيمًا لِقَصْدِ سُلْبِ بِلَادِ الْعِرَاقِ وَالْعَجَمِ وَالْهِنْدِ عَنِ الْمَمْلُوكِ مِنَ الْأُمَمِ، وَتَرْتَّبَ ذَلِكَ أَيْضًا ابْتِدَاءً وَلَا لَزَمَ أَنْ عَدِمَ الْقُدْرَةُ عَلَى مَقَاوِمَةِ كُلِّ مَنْ كَانَ يَهْجُمُ لِلْمَحَارِبِيِّ كَانَتْ سَبَبًا فِي كَثْرَةِ أَمْوَالِهِمْ وَرَفَاهِيَّتِهِمْ، فَتَبَّ عَلَيْهَا فِيمَا بَعْدُ فُتُورَ هِمَّتِهِمْ فِي تَكُونِ السِّمَةِ ظَاهِرَةً عَنِ بَدَنِهِ تُلَوُّنُهُ وَتُنْذِلُهُ بِأَهْلِ وَطَنِهِ، أَوْ يَفِرُّ مِنَ الزَّحْفِ يُعَاقَبُ بِوَسْمٍ بِعَلَامَةِ الْعَيْبِ وَالْعَارِ وَالْإِفْتِضَاحِ، عَنِ كُلِّ عِمَالَةٍ حَاكِمٍ — لَمْ تَزَلْ صُدِّ حُفَّ الْعُلُومِ الْيَتَرَسُّ بِهَا الْقَلَمُ الْقَدِيمُ الْبَائِي.